مجد الأدب العربي منذ أربعين سنة

طه حسين الشاعر

للاستاذ محمد سيد كيلاني

عرف الناس طه حسين كاتبا وقصاصا وعالما وباحثا وأستاذا ومربيا ووزيرا، ولكنهم لم يعرفوه شاعرا، ومن هنا فقال سيعلمون أنه عالج الشعر في صباه ثم انصرف عنه في شبابه. فلو ظل يعالجه لظفر بالأولية فيه كما ظفر بها في كل شيء.

بدأ معالي الدكتور طه حسين باشا حياته الأدبية شاعرا لا كاتبا. فلهج بالشعر وهو صبي وكان الدافع له على ذلك وفاة أخيه في وباء الكوليرا في صيف عام ١٩٠٢ وقد ذكر ذلك في الجزء الأول من كتاب الأيام فقال إنه كان ينفق وقتا طويلا في نظم القصائد يرثي بها أخاه ويختم كل قصيدة بالصلاة على النبي واهبا ثواب هذه الصلاة إلى أخيه. ولم يدون لنا هذا الشعر فلا نعرف عنه شيئا.

ولما جاء القاهرة ظل ينظم القصائد من حين إلى حين. وقد حدث ذات مرة أن الشيخ المرصفي كلف تلاميذه بالكتابة في موضوع من الموضوعات شعرا ونثرا. قال الشيخ أحمد حسن الزيات أستاذ الآداب العربية بكلية الفرير بالقاهرة من خطبة ألقاها في حفل تكريم الدكتور طه بنيل الدكتوراه من الجامعة المصرية القديمة ونشرت بصحيفة الجريدة في ٢٦ مايو سنة ١٩١٤ ما نصه « ... فأخذنا نعمل موقنين أن الفتى (يعني الدكتور طه حسين) لن يبزنا في نثر الكلام ونظمه، وإن يزنا في حفظه وفهمه. ولكن ما تقولون وقد فدا على الشيخ بقصيدة حماسية الموضوع جاهلية الأسلوب تمثل ما انطبع في خاطره من صور الشعر القديم؟

« سمعنا تلك القصيدة فازدرينا أنفسنا وستر نا ما قلنا وشعرنا بالضعف أمام تلك القوة النادرة. فأحلناه منا محل الإنسان من العين والسواد من القلب ومضينا على أثره نخوض بحور الشعر فتارة نطفو وأخرى نرسب وهو في السباحة ماهر وبالطريق خبير ... الخ »

والظاهر أن هذه القصيدة التي يحدثنا عنها الأستاذ الجليل أحمد حسن الزيات قد ضاعت وذلك لأن الشاعر لم يكن متصلا بالصحف في ذلك الوقت فلم تنشر

وأول قصيدة نشرها كانت في رثاء حسن باشا عبد الرازق وقد ظهرت في صحيفة الجريدة بتاريخ أول يناير سنة ١٩٠٨ ومطلعها

أفي الحق ما أسمعتنا أم توهما ... تبين فقد بدلت أدمعنا دما

والحب بين الشاعر وبين آل عبد الرازق قديم. وقد توثقت أواصر المودة والإخاء بينه وبينهم على مر الأيام. ولما وقف منذ أعوام يرثي الفقور له مصطفى باشا عبد الرازق كان رثاؤه مؤثرا إلى حد بعيد

وفي عام ١٩٠٩ رأينا الشاعر قد مال إلى جانب الحزب الوطني وأخذ ينشر في صحيفة مصر الفتاة قصائد حماسية تارة تحت عنوان « حديث مع النيل » وتارة تحت عنوان « في القاهرة » وفي بعض هذه القصائد يظهر في مظهر رجل الدين الذي ملئ قلبه يقينا وإيمانا فتراه يعظ ويرشد، ويذكر ويحذر، ويبصر وينذر، ويدعو الناس إلى التمسك بأهداب الدين وأحكام الشريعة الغراء، انظر إليه حين يقول من قصيدة نشرت في صحيفة مصر الفتاة بتاريخ ٢٦ أغسطس سنة ١٩٠٩

أنفذوا حكمه على كل جان	لا ينلكم من دون هذا فتور
ارجموا واجلدوا كما أمر الله	ه بجانيكم الخنا والفجور
إن من يهدر الفضيلة يهدر	ليس كفءا لذنبه التعزير
طرب النيل ثم قال لمصر الا	ه قد كان يرديني السرور
أنحب للدين من أهل مصر	أنت والله للنجاة بشير
نسيت مصر دينها فعداها	كل خير وجللها الشرور
أهملت فيكم الفضيلة من أم	مل فيكم كتابها المسطور
لن ترى بين أهل مصر وفيا	يقتضيه الوفاء إلا البدور
عهدنا بالوفاء أيام كان الد	دين غضا تلين منه الصدور

وكان يكتب مقالات تدور حول هذه المعاني. ومن أمثلة

ذلك ما نشره فى صحيفة مصر الفتاة تحت عنوان « ويحى من فد» بمناسبة حلول شهر رمضان . ومما جاء فى هـــذا المقال قوله :

« ... فستطلع علينا شمس الغد لا محالة ونحن بين رجلين ، مذعن لأمر ربه ، وخارج عليه . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقلوبهم خاشعة لربهم ، وأفواههم ملجمة إلا عن ذكره ، ناطقة إلا بلغو الحديث . وأما الجاحدون لأمر ربهم فمغرورون يتبعون أئمة من شياطين الإنس ينهجون بهم مناهج التى قد ضربوا فى الفاسقة حتى خرجوا منها أصفار الأكف خفاف الميزان . وإذا سألت أحدهم ماخطبـــك أهذر وأهجر ، وتشدق وتفيهق ، لاتأخذه رهبة من الله ، ولا يردعه حياء من نفسه ، ليس بدعا من أعمال الناس أن يزع الإنسان نفسه عن الطعام والشراب ساعات معدودات فكثيرا ما نضطر إلى شئ من ذلك ؛ وإنما المشقة كل المشقة فى أن نؤدى به حقا لله أو نقضى به له واجبا

« ضعف فى الإيمان وتزعزع فى العقيدة . ولو أن هناك يقينا صادقا أو قلوبا مطمئنة لهان علينا الإذعان لله والقيام بحقوقه وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . ليصم من شاء وليفطر من شاء فلسنا من أمرهم فى شئ . ولكن أقبل أيها الشهر الكريم فستلقاك وجوه باشة وصدور رحبة ، ولئن كنت موسم نسك لقوم فإنك موسم لهو لآخرين »

والشئ الذى لا ريب فيه أن الشاعر حينما نظم هذه القصائد وكتب هذه المقالات لم يكن متكلفا ولا متصنعا ، وإنما كان يرسل القول شعرا أو نثرا — عقيدة ثابتة فى قرارة نفسه ، ممتزجة بدمه ولحمه لذلك انتقمت فى دراستى لتطوره الفكرى بما نظم ونثر فى ذلك الوقت

ومن قوله فى هذه القصيدة

حسبكم فى الآداب ما قاله فلـ	ـتير أو ما أتى به فيكتور
نعم ما قال ذا وما قال هـذا	ونعما قال العليم الخبـــير
فخذوا من كليهما بنصيب	وتوخوا هداهما تستنيروا

. . .

والظاهرة الغالبة على شاعرنا هى الدعوة إلى الجد وترك اللهو والخمول والكسل . وهو يدعو إلى العمل المتواصل المنتج على أن نقلل من الكلام ما أمكن . وكان ساخطا على المجتمع المصرى لما فيه من عيوب كانت سببا فى تخلف الأمة وتأخرها . ولكنه على سخطه وتبرمه لم يكن متشائما ولا يائسا . بل كان الأمل يحدو والرجاء فى نهضة الأمة يملأ فؤاده . انظر إليه حين يقول من القصيدة المتقدمة

كثر المدعون فى مصر حتى	كاد يقضى على البلاد الفرور
حسبكم يابنى الكنانة عجبا	كسل مخجل وفخر كثير
ليكن قولكم أقل من الفعـ	ـل فلن يبلغ العلاء فخور
أجملوا إن أردتم السير للسؤ	ـدد والمجد أمركم ثم سيروا

أو يقول من قصيدة أخرى نشرت فى الصحيفة المذكورة بتاريخ ١٨ مايو سنة ١٩٠٩

كاتب نائم وذو الشعر لاه	وأديب سبته كأس الشمول
شاعر النيل لا عدتك الموادى	هل لهذا السكوت من تأويل
أسلموا دارهم وعقوك يانيـ	ـل فما إن لهم سوى التنكيل
فض فأغرقهم و فأنت حليم	غض فأهلكهم وغير بخيل

فظاهرة السخط الشديد هذه لن تجدها عند أحد من شعراء ذلك العصر فما لا ريب فيه أن الطالب طه حسين قد انفرد بها دون سواه . لا يزال محتفظا بها

والدكتور طه حسين لا يعرف القناعة بل يعتبرها ضعفاً وخوراً . وقد نشأ على تلك العقيدة كما ترى من شعره فهو من غير شك صاحب روح قد بلغ الأوج فى السمو والرفعة . فجدير بنا أن نسلك سبيله ونهتدى بهديه . وإنى بهذا أقرر حقيقة من الحقائق

. . .

قلنا إن الطالب طه حسين انضم إلى الحزب الوطنى وأصبح داعياً من دعاته . وقد ظهر أثر ذلك فى شعره فتراه يحمل على المحتلين حملة شعواء ويهاجمهم هجوماً عنيفاً ، ويدعو إلى كفاحهم وجهادهم ، ويظهر مقته وحقده على الأجانب الذين يمتصون دماء المصريين ويستنزفون أموالهم . ومما نظمه فى ذلك قصيدة قيمة نشرت بمصر الفتاة بتاريخ ٥ نوفمبر سنة ١٩٠٩ تحت

عنوان « هم جائش » .

تيمموا غير وادى النيل وانتجعوا ... فليس فى مصر الأطماع متسع
كفوا مطامعكم عنا أليس لكم ... مما جنيتم وما تجنونه شبع
يا للكنانة من منكود طالعها ... ماذا يجر عليها النوم والطمع

ومن مثل أبنائها فى سوء صفقتهم

منها إذا ما اجتنوا من غرسهم وزعوا

هم الذين ابتنوا بالأمس واحتفروا ... فما لهم إن أرادوا حقهم دفعوا
لا يصنع الله للمستعمرين فكم ... يلقى بنو النيل من جراه ما صنعوا
أكلما جاع غربى تيممنا ... حتى إذا اكتظ أغراه بنا الجشع
لا جاد مصر حياً. لا أخصبت أبدا ... لحظ أبنائها من خصبها الضرع
يا نيل إن سخت المستعمرين ولم ... تطب لأبنائك الملات والجرع
فلا جريت ولا رويت ذا ظمأ ... ولا أمدك غيث واكف همع

ومنها :

الذنب ذنب بنى مصر فإنهم ... هم الذين إذا ما استخضعوا خضعوا
هم الذين استبدت فى حقوقهم ... يد الدخيل فما ذادوا ولا منعوا
هم الذين يقول الناس إنهم ... إن صادفوا ملهياً عن جوعهم قنعوا
لا أكذب الله كم فينا ذوو شمم ... إذا أريدت بهم مكروهة فزعوا

هذه القصيدة قيلت فى أيام الوزارة البطرسية ، وقد كان شعور السخط عليها شديداً . ولما كانت هى مجرد آلة فى يد المحتلين كانت عملات الشعراء والكتاب موجهة فى الحقيقة إلى السياسة البريطانية وإلى الأجانب الذين يسندون هذه السياسة ويشدون أزرها ولا شك فى أن روح الشاعر قد بدأ سامياً . ومما لا شك فيه أن وجوده فى محيط الحزب الوطنى قد أثر فيه وطبعه بهذا الطابع .

وقد هنأ الشيخ عبد العزيز جاويش حينما خرج من السجن بقصيدة نشرت فى مصر الفتاة بتاريخ ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٠٩ نذكر منها :

الآن حق لك الثناء ... فلتحى وليحى اللواء
ولتحى مصر وحقها ... شاء المدى أو لم يشاءوا
سلو بها أصواتنا ... حتى ترددها السماء

ومنها :

إن كان ذكرك للجلا ... ء يسوء فليكن الجلاء
أو كان صوت الشعب عند ... هم هو الداء العياء
فليعل صوت الشعب حتى ... يرجعوا من حيث جاءوا
سيرون أن الحق يأ ... بى أن يدوم له خفاء
سيرون أن الحق مو ... ما يهتضم فله العلاء
لم يسجنوك وإنما ... ردوا الأمور كما تشاء
ما إن أصابتك الإساءة بل لأنفسهم أساءوا

. . .

هذا هو الجانب السياسى فى شعر الطالب الشاب طه حسين . وهو جانب مشرق ، ترى فيه الشجاعة والإقدام والدعوة إلى التضحية بالمال والروح فى سبيل الوطن والذود عن حياضه .

ولما عاد الخديو عباس من الحجاز نظم الشاعر قصيدة نشرت فى الجريدة بتاريخ ٢٦ يناير سنة ١٩١٠ تحت عنوان « رجاء الدستور بعد الحج البرور » ومما جاء فيها قوله :

أنت والدستور فى الحـ ... ـب لديها أخوان
وترى حجك بالخيـ ... ـر لها نعم البشير
كن لوادى النيل حصنا ... من عوادى الحدثان
وامنح الدستور مصرا ... أنت إن شئت قدير

. . .

هل سمعت الصوت يدعو ... ك من القبر الكريم
إنما أنت على النا ... س وصى وأمين
لا تذدهم عن صراط الـ ... ـحق والنهج القويم
أرض بالدستور مصراً ... ترض رب العالمين

وقد حاول الشاعر أن يخاطب الخديو عن طريق العاطفة الدينية ، فذكر القبر النبوى الكريم وأن النبى دعا الخديو قائلا له إنما أنت وصى وأمين على الناس فاجعلهم يسلكون الصراط المستقيم ولا يكون هذا بغير الحكم الدستورى . فإن أنت منحت شعبك الدستور فقد رضى الله عنك ، وإن حلت بينهم وبين ما يشتهون فقد عرضت نفسك لغضب الله ولا ينفعك حج ولا صلاة .

ننتقل بعد ذلك إلى الشعر الوجدانى الذى نظمه الشاعر وصور فيه خلجات نفسه وما يتردد بين جوانحه من مشاعر مختلفة وأحاسيس متباينة كالرضى والسخط ، والحزن والفرح ، والتفاؤل والتشاؤم ، والحب والبغض . فمن ذلك قصيدة نشرت فى مصر الفتاة فى ١٥ يناير سنة ١٩١٠ تحت عنوان « يوم القران » وقد قدم لها بقوله : « دعيت إلى حفل أقامه صديق الأديب الأستاذ

الشيخ أحمد حسن الزيات مساء الخميس الماضي لمقد قرانه . فلما أجيبت الدعوة راقني ما كان في الحفل من جمال ولاسيما ذلك النوع من الغناء القديم الذي طالما اشتقت إلى سماعه »

قال :

يا خليلي سلامي جبذا يوم القران
جبذا أمس فقد أد نى نوالا غير دان
جبذا ليلة أمس راق لي فيها زماني
ليلة قد نلت فيها من حظوظي ما شفاني
أنا لا أحمد منها حسن توقيع الأغاني
إنما أحمد منها حسن أنسي بفلان
لم أزل أقصف حتى خلت أني في الجنان
بينما نحن على ذ لك زف القمران
آه يا زيات ما أج مل ساعات الأماني
من قد هجن لنفسي ذكر سحر وعنان
أنا لولا سوء حظي لم أكن إلا ابن هاني
يا شقيق النفس ضاق الشعر عن نظم التهاني
لا تلمني إن دعوت الشعر والشعر عصاني
جل حبي لك يا زيات عن وصف البيان

. . .

ومن الظواهر التي نقف عليها في شعره الشكوى من البؤس وهذا النوع من الشكوى كان مألوفا بين الشعراء في تلك الأيام . ومما قاله في هذا الصدد قصيدة نشرت في مصر الفتاة بتاريخ ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٠٩ تحت عنوان « شكاة الأديب » وقد جاء فيها :

إذا شكا البؤس كل ندب فقد نجا منه شاعران
بينا أمانيه كان شوقي يقصف في كرمة ابن هاني
وحافظ في القطار يلهو مشرد الهـ ـم عاني
أذاك أم مسه شقاء فانتجم ا ـ
ثم اثنى وهو بالصفايا من سلف الدهر في ضمان
فليطب الشاعران نفسا إنا رضينا بما تماني
ما سرني ساعة كبؤسي والأدب الغض صاحبان

ويقول في قصيدة أخرى نشرت بمصر الفتاة بتاريخ أول أكتوبر سنه ١٩٠٩ .

علم الله أن حظي في البؤ س كبير لكنني غير عاني
كل حظي من السعادة أني رضت نفسي على خطوب الزمان

وغشي الشاعر أحمد اللاهي مرة فكتب في الجريدة بتاريخ ٣١ يوليو سنة ١٩١١ فقال « كنت منذ أيام في ملهى من اللاهي العامة التي يجب أن تتخذ مثالا صادقا لذوق الجمهور ، وقد يكون هذا التصريح خطراً جدا ، فإن الجمهور لا يقبل من كاتب مثلي أن يزج نفسه بين صفوفه في المراقص وأندية الغناء ، بل إن أسرتي نفسها قد تنكر على ذلك أشد الإنكار لأنها لا ترضى مني إلا أن أسلك سبيلا واحدا هو ما بين البيت والمدرسة . »

وله شعر في النزل يغلب على الظن أنه من وحي الخيال كقوله من قصيدة نشرت في مصر الفتاة في ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٠٩

كم حمد العيد من بلاني مذ كان لي بالهوى يدان
تحكم العيد في دهرا ثم انثنى عنهم عناني
لا أكذب الله إن عاما مضى حثيثا بلا توان
إذا تذكرته استهلت دموع عيني كالجمان
إذ أنا في لذة وأمن أباكر اللهو غير وان
أرضيت بالطيبات نفسي في غير إثم ولا افتنان
ما أخذ الكاتبان سوءا يذودني عن ربى الجنان
إن كان في قبلة جناح فإنني منه في أمان
لم أستبح نيلها فجورا بل قال بالحل (مفتيان)
قد نلتها واستزدت منها لو بعض ما نلته كفاني
ثم طوى الدهر ذاك عنا ليت الردى قبلها طواني

وهو حتى في هذه القصائد التي يتغنى فيها بالحب والجمال ويتحدث عن الحسان كان يدعو إلى التمسك بأهداب الفضيلة انظر إليه حين يقول من قصيدة نشرت بالجريدة في ١٤ فبراير سنة ١٩١٠ تحت عنوان « زلة في الحياة »

أي هذا العاشق المد نف حب الحق أولى
دونك العشق إذا شئت ولكن للفضيله
أنا أنهاك من الأهـ ـواء عما كان جهلا
إنما أربأ بابن النيـ ـل عن حب الرذيله

وكثيراً ما دعا في شعره إلى هذا النوع من الغرام وتراه يدافع ويناضل عن مذهبه الغرامي ويرد على من ينكر عليه ذلك

مسفهاً رأيه ، ومثال ذلك قوله من قصيدة نشرت فى مصر الفتاة بتاريخ ٧ يناير سنة ١٩١٠ تحت عنوان « ليت للحب قضاة »

سيقولون حرام قلت ليست بحرام
إنما حرم ربى فى الهوى ما كان رجسا
أى دين أو كتاب لم يبح ورد الغرام
لا شفى الله لأهل الـ ـبين والتضليل نفسا

ثم يستمر الشاعر فى قصيدته فيبين لنا الحب الطاهر والحب المدنس ؛ فالأول لا يحرمه دين من الأديان ، أما الثانى فحرم قطعا . وهو إن تغنى بالحب فإنما يقصد ذلك الحلال المباح . ثم أخذ يحذرنا من خداع النساء تحذيراً زعم أنه صادر عن تجربة واختبار قال :

إن للغيـــد خداعا ربما فات الفطن
أنا قد جربت منه إن تصدقنى صوفا
ليس يكفى غدرات الغيد قول لحسن
إنما يأمن مكر الغيـ ـد من كان شريفا

ولم أر لصاحبنا شعراً فى غير الأغراض المتقدمة ، اللهم إلا قصيدة واحدة فى الهجاء نشرت فى الجريدة بتاريخ ٢٨ نوفمبر سنة ١٩١١ تحت عنوان « إلى عبد الرحمن شكرى » وهى :

قل لشكرى فقد غلا وتمادى بعض ما أنت فيه يشقى الفؤادا
بعض هذا فأنت فى الشعر والنـ ـثر أديب لا يعجز النقادا
لو تفهمت قولنا لم يكلفـ ـك هوى نقدنا الضنى والسهادا
عد إليه تجـــد شفاءك فيه إنما تمقت الحديث المعادا
واقتصد فى الغلو إن لدينا إن تسائل بنا نصالا حدادا
خل عنك القريض إذ لست أمضى فيه سهما ولا بأورى زنادا
إن تكن مكثرا فرب مقل حاول القول مرة فأجادا
كن إذا شئت آمناً مطمئنا لم تحاول لما تقول انتقادا

ذلك شعر طه حسين أيام كان طالبا بالأزهر منذ أربعين سنة وهو يدل على أنه نشأ شاعراً بالفطرة وقال الشعر وهو صبى ، وأخذت شاعريته تنمو نموا مطرداً سريعاً يصاحبها إحساس فياض وعواطف حارة وشعور متدفق . وقد شهد له إخوانه فى الأزهر بذلك وأقروا له بالسبق واعترفوا بفضله وتفوقه عليهم . وكثيراً ما نجد فى نثره سمات الشعر

أما شعره فقد كان فيه مجدداً مبتكراً . قال الأستاذ الجليل أحمد حسن الزيات فى خطبته المتقدمة « بعد عامين من هذا التاريخ (يقصد بعد عام ١٩٠٥) استطاع بطلنا أن ينزل الشعر ، على حكمه ويروضه لذوقه فصاغ الشعر الحضرى المصرى فى مختلف الأوضاع ، لأنه وإن كان محافظاً فى اللغة فإنه حر فى الشعر ؛ رأى ما يثقل الشعر العربى من قيود القافية يوقع فى نفسه أن ينفس عنه فاخترع له الأضرب المختلفة والقوافى المتنوعة على نحو ما يصنع الإفرنج فى شعرهم ، إلا أن شعره أجل وأكمل لاحتفاظه بالذوق العربى والطابع الشرقى . » وهكذا أراد الشاعر الناشئ أن يخفف من قيود الشعر العربى وأن يجعله سهلا مرنا لا يحتاج إلى عناء وتعب . وقد شاع هـذا المذهب عند بعض الشعراء فى تلك الأيام

وشعر الطالب طه حسين يفيض رقة وعذوبة ، وقصائده الغرامية أشبه بالأدوار الموسيقية والمقطوعات الغنائية ، عليها سمة فنية جميلة ، فكأنها قيلت للغناء . انظر إلى قوله :

شادن عطف عطفه الحبيب
بعد أن صدف صـدفة الملول
كم سبى العقول قوله الخلوب
يملك القلوب ثم لا ينيل

* * *

كل ذى بهـاء يمقت الوصال
يظهر الحيـاء وهو فى صدود
من لذى الصدود منه بالنوال
إن فى الجمال عثرة الجـدود

فأنت ترى شعراً غنائيا جميلا ، ينبعث منه صوت حنون تكاد ترقص منه طربا . وقد ظهر الشاعر أمامنا ممسكا بقيثارته ليحرك مشاعرنا ويهز عواطفنا ويملك قلوبنا بهذه الأنغام العذبة

* * *

ومن المؤسف له هو أن الشاعر الشاب قد اضطرته الحياة الجامعية إلى التخلى عن صوغ الشعر . فبعد عام ١٩١٠ لا نجد له من القصائد إلا النادر . ولكنه ظل محتفظا بشهرته كشاعر إلى عام ١٩١٤ وهو العام الذى سافر فيه إلى أوربا . وقد رأينا الأستاذ الزيات يقول فى خطبته التى ألقاها فى صيف ذلك العام ما نصه